ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dheyaa Owaid Thahab

Imam Jaafar Al-Sadiq University

Email: dheyaathahab@gmail.com

Keywords:

A r t i c l e i n f o

Article history:
Received 15.May.2022
Accepted 17.Aout.2022
Published 30.Nov.2022

The hierarchy of values in Islamic thought

A B S T R A C T

Behind the choice of the title are two things ،the first is a statement of what the Holy Qur'an emphasized about the goal of the mission of the prophets and messengers to guide people to the right path and establish justice through the highest values and embody the highest levels of human behavior ،and the second is the call to purify the Islamic heritage from hadiths and narrations that contradict what came The Noble Messenger Muhammad (may God's prayers and peace be upon him and his family) is based on his saying: "I was sent to perfect morals."

The research aims to clarify the higher values and their ranks emphasized by the Holy Qur'an ،and embodied in the biography of the honest and faithful messenger and the seal of the prophets ،Muhammad (peace and blessings of God be upon him and his family) ،in contrast to what is happening today of crimes and moral degradation that they unjustly ، falsely and aggressively attribute to Islam. It also aims at an important point. It is that what we see and hear today of crimes that shame humanity under Islamic slogans ،have nothing to do with the original Muhammadan Islam ،and the researcher chose some of the highest values that the Islamic religion emphasized ،according to what most scholars and thinkers see in this field ،such as mercy ،piety and justice.

The research was divided into a preface ،three chapters and a conclusion. In the introduction ،we discussed the terminology of the title. In the first topic ،we discussed the value of piety in Islamic thought. In the second topic ،we touched on the value of mercy in Islamic thought. In the third topic ،we touched on the value of justice in Islamic thought. The conclusion included the most important the results of the research.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol49.Iss3.3362

تراتبية القيم في الفكر الإسلامي

م.د. ضياء عويد ذهب الخويلدي
جامعة الإمام جعفر الصادق (ع)

الملخص

إنَّ وراء اختيار العنوان أمران، الأول هو بيان ما أكَّد عليه القرآن الكريم من هدف بعثة الأنبياء والمرسلين من هداية الناس إلى الصراط القويم وإقامة العدل من خلال القيم العليا وتجسيد أعلى مراتب السلوك الإنساني، والثاني الدعوة إلى تنقية الموروث الإسلامي من الأحاديث والروايات التي تنافي ما أتى به الرسول الكريم محمد (o) بناء على قوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

يهدف البحث إلى بيان القيم العليا ومراتبها التي أكد عليها القرآن الكريم، وتجسدت في سيرة الرسول الصادق الأمين وخاتم النبيين محمد (o)، خلافاً لما يحصل اليوم من جرائم وتدني خلقي ينسبونها للإسلام ظلماً وزوراً وعدواناً، كذلك يهدف إلى نقطة مهمة وهي أنَّ ما نراه ونسمعه اليوم من جرائم يندى لها جبين الإنسانية تحت شعارات إسلامية، لا صلة لها بالإسلام المحمدي الأصيل، وقد اختار الباحث بعضاً من القيم العليا التي أكد عليها الدين الإسلامي وفقاً لما يراه أغلب العلماء والمفكرين في هذا المجال كالتقوى والرحمة والعدالة.

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، ففي التمهيد تعريف لمصطلحات العنوان، وتناولنا في المبحث الأول قيمة التقوى في الفكر الإسلامي، وتطرقنا في المبحث الثاني إلى قيمة الرحمة في الفكر الإسلامي، وفي المبحث الثالث تطرقنا إلى قيمة العدالة في الفكر الإسلامي، وتضمنت الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية: التراتبية ، القيم ، الفكر الإسلامي

المقدمة

يمر العالم اليوم بأزمة أخلاقية تكاد تكون فيها القيم العليا التي جاءت بها الرسالات السماوية معدومة على جميع الأصعدة، سواءً أكان على مستوى العالم أو على مستوى الدولة الواحدة، فالاستكبار العالمي والعولمة والهيمنة الاقتصادية والحاكمية باسم الدين أدت بالشعوب المستضعفة إلى إعلاء صرخاتها التي تعلو من هنا وهناك ولسان حالها يقول: اين تقوى الله؟ وأين الرحمة؟ وأين العدالة؟ وأين الحرية؟.. وقد تم في هذا البحث تسليط الضوء على اهم القيم التي جاء بها الإسلام باعتباره خاتم الديانات ورسالته خاتمة الرسالات التي في تطبيقها الصحيح تكون السعادة الإنسانية، والوصول بالإنسان الى بر الأمان.

فقد تواترت النصوص الشرعية كتابًا وسنة بالإعلاء من شأن قيم التقوى والرحمة والعدل والحرية والترغيب لها، والاتصاف بها لما لها من آثار حميدة على النفس والمجتمع، وقد طبقها النبي محمد (o) في كافة مجالات الحياة بدءًا من حياته الخاصة إلى وظيفته نبيًا ورئيس دولة، حتى غدت الرحمة من أخص سماته (o) فهو نبي الرحمة الذي اتخذ الرحمة شعارًا له من قول الله تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (القرآن الكريم، صفحة 331، سوؤة الأنبياء، آية: 107). وقد بدأ الله سبحانه وتعالى كلامه في القرآن الكريم بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" في جميع السور القرآنية سوى سورة "براءة"،

وهذه العبارة تتضمن اسمين من أسماء الله تعالى "الرحمن والرحيم"، وهما اسمان مشتقان من صفة الرحمة، فبعث الرحمنُ نبيَّه رحمةً للعالمين.

تم تسليط الضوء في هذا البحث على أهم القيم الإنسانية التي امتاز بها الدين الإسلامي، وذلك من خلال الآيات الكريمة التي وردت بهذا الخصوص وسيرة النبي محمد (o) وأقواله وأفعاله التي جسدها عملياً في تعامله مع الآخر، وسعيه المستمر في إرساء القيم الأخلاقية البناءة التي تنسجم ومبادئ حقوق الإنسان واحترام الرأي الآخر، وكذلك الإفادة من تراث الإمام علي (o) في بناء المجتمع الإنساني الصالح، ونشر روح الألفة والمحبة والتسامح، والحوار الذي تفتقده المجتمعات الإنسانية في أماكن كثيرة من العالم في الزمن المعاصر، والذي تعاني فيه المجتمعات لاسيما الإسلامية من التشتت والتبعية والخنوع للأنظمة الإمبريالية المهيمنة على العالم بطرقها المختلفة، وسيطرتها على الاقتصاد بسبب امتلاكها للتكنولوجيا المتقدمة التي حولت العالم إلى قرية صغيرة.

تـــمهيـــد

تعريف مصطلحات العنوان في اللغة والاصطلاح

أولاً– التراتبية في اللغة والاصطلاح.

التراتبية في اللغة والاصطلاح سيان لا فرق بينهما، ومصدرها الفعل الثلاثي رتب.. رتب: (رَتَبَ) الشيءُ يَرْتُبُ (رُتُوباً: ثَبَتَ) ودَامَ (ولمْ يَتَحَرّك، كتَرتَّب)، وعَيْشٌ رَاتِبٌ: ثَابِتٌ دَائِمٌ، وأَمْرٌ راتِبٌ أَي دَارٌّ ثَابِتٌ.. (والتُّرْتُبُ كَقُنْفُذ وجُنْدَبٍ: الشَّيْءُ المُقِيمُ الثَّابُتُ) وأَمْرٌ تُرْتَبٌ عَلَى تُفْعَل بضمّ التَّاءِ وفَتْحِ العَيْنِ أَي ثَابِتٌ.. (والرُّتْبَةُ بالضَّمّ ، والمَرْتَبَةُ : المَنْزِلَةُ) عندَ المُلُوكِ ونَحْوِهَا، وفي الحديث (مَنْ مَاتَ عَلَى مَرْتَبَةٍ من هذه المَراتِبِ بُعِثَ عليْهَا) المَرْتَبَة؛ المَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ أَرَادَ بها الغَزْوَ والحَجَّ ونَحْوَهُمَا من العِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ ، وهي مَفْعَلَةٌ من رَتَبَ إذا انْتَصَبَ قائماً، والمَرَاتِبُ: جَمْعُهَا، قال الأَصمعيّ: والمَرْتَبَةُ: المَرْقَبةُ، وهي أَعْلَى الجَبَلِ، وقال الخليل: المَرَاتِبُ في الجَبَلِ والصَّحَارِي ، وهي الأَعْلامُ التي تُرَتَّبُ فيها العُيُونُ والرُّقَبَاءُ (الزبيدي, محمد مرتضى الحسيني، 2004م، صفحة 481، ج2).

ثانياً– القيم في اللغة والاصطلاح.

مفهوم القيم في اللغة.

"القيم: واحدة القيم، وأصله الواو؛ لأنه مقام الشيء، والقيمة: ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقامَوْه فيما بينهم، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه، ويقال: كم قامت ناقتك؟ أي: كم بلغت؟، وقد قامت الأَمَةُ مائة دينار: أي بلغت قيمتها مائة دينار، وكم قامت أَمَتُك؟ أي: بلغت" (ابن منظور, جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري، 2005م، صفحة 500).

والقيم: جمع "قامات، وقِيَم كعنب وهو قَويمٌ، وقَوّامٌ كشَدّاد: حسن القامة ... والقيمة بالكسر واحدة القِيَم، وماله قيمة إذا لم يدم على شيء، وقومت السلعة واستقمته: ثمنته، واستقام: اعتدل، وقومته: عدلته فهو قويم ومستقيم وما أقومه شاذٌّ، والقوام كحساب: العدل وما يعاش به، وبالضم: داء في قوائم الشاء، وبالكسر: نظام الأمر وعماده وملاكه" (الفيروز آبادي, محمد بن يعقوب، د. ت، صفحة 170).

وهو أي القيم كذلك «اسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت، كالعماد والسناد: لما يعمد ويسند إليه ... والإقامة في المكان: الثبات، وإقامة الشيء: توفيه حقه، وتقويم الشيء: تثقيفه، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (القرآن

الكريم، صفحة 597، سورة التين، آية: 4)، وذلك لما خُصَّ به الإنسان من بين الحيوان في العقل والفهم، وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في هذا العالم (الراغب الاصفهاني، 1997م، الصفحات 690-693).

ولعل أقرب هذه المعاني المستعملة في اللغة العربية إلى موضوع البحث هو الثبات والدوام والاستمرار على الشيء، وهو الأمر الثابت الذي يحافظ عليه الإنسان ويداوم على مراعاته في جميع شؤونه (المانع, مانع بن محمد بن علي، 2005م، صفحة 27).

مفهوم القيم في الاصطلاح.

عرفت القيم في الاصطلاح بعدة تعريفات، منها: أن القيم هي: "مستوى أو مقياس أو معيار نحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه" (صالح بن حميد وآخرون، د. ت، صفحة 78، ج1).

أن القيم هي: "صفات، أو مُثل، أو قواعد ... تقام عليها الحياة البشرية فتكون بها حياة إنسانية، وتعاير بها النظم والأفعال، لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ماتتمثله منها" (الزنيدي, عبد الرحمن بن زيد، 1998م، صفحة 462).

كما عرفت بأنها: "مجموعة من القواعد التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، وتختلف بها عن الحياة الحيوانية" (عبد الله بن ابراهيم الطريفي وآخرون، 1417هـ، صفحة 14).

وعرفها بعض علماء الفكر الإسلامي، بأنها: "حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتدياً بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع محدداً المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك" (زهران, حامد عبد السلام، 1977م، صفحة 132).

وعرفها بعضهم بأنها: مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من تصورات أساسية عن الكون والحياة والإنسان والإله، كما صورها الإسلام، تتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته تتلاءم مع قدراته وإمكانياته، وتتجسد من خلال الاتجاهات أو الاهتمامات أو السلوك اللفظي أو العلمي بصورة مباشرة وغير مباشرة (أبو العينين, علي خليل مصطفى، 1988م، الصفحات 34-45).

ثالثاً- مفهوم التقوى في اللغة والاصطلاح.

مفهوم التقوى في اللغة:

التقوى لغة: الحذر، يقال: اتقيت الشيء، وتَقَيْتُهُ أتقيه تُقًى، وتِقيَّةً، وتِقاءً: حذرتُه. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (القرآن الكريم، صفحة 577، سورة المدثر، آية: 56)، أي هو أهلٌ أن يُتّقى عقابه، وأهل أن يُعمل بما يُؤدّي إلى مغفرته، والوِقاءُ والوَقاء والوِقايةُ والوَقايةُ والوُقايةُ والواقِيةُ كلُّ ما وقَيْتَ به شيئاً، وفي الحديث: "كنا إِذا احْمَرَّ البَأْسُ اتَّقَينا برسولِ الله صلى الله عليه وسلم"، أَي جعلناه وِقاية لنا من العَدُوّ قُدَّامَنا واسْتَقْبَلْنا العدوَّ به وقُمْنا خَلْفَه وِقاية" (ابن منظور, جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري، 2005م، صفحة 402، ج15).

مفهوم التقوى في الاصطلاح:

وقد اختلفت معاني كلمة التقوى وتعددت في اصطلاح أهل العلم والمفسرين، قال الجرجاني: وعند أهل الحقيقة: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، والتقوى في الطاعة: يراد بها الإخلاص، وفي المعصية: يرادبها الترك والحذر، وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى، وقيل: المحافظة على آداب الشريعة،

وقيل: مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى، وقيل: ترك حظوظ النفس ومباينة النهى، وقيل: ألا ترى نفسك خيراً من أحد، وقيل: ترك ما دون الله، والمتبع عندهم، هو الذي اتقى متابعة الهوى، وقيل: الاهتداء بالنبي عليه السلام قولاً وفعلاً (الجرجاني, أبو الحسن علي بن محمد، 2003م، الصفحات 47-48).

رابعاً- مفهوم الرحمة في اللغة والاصطلاح.

مفهوم الرحمة في اللغة:

ورد ذكر الرحمة في القرآن الكريم بمادتها ومشتقاتها نحو الثلاث مائة والثلاثين مرةً، وذكرت مرادفاتها ومستتبعاتها من نحو النعمة والرأفة والعفو والمغفرة نحو الأربع مائة مرةً، فضلاً عما تضمنه القرآن الكريم من معانٍ للرحمة، وتشريعات كلها غاية في الرحمة بالإنسانية كلها.

وقد لجأ بعض اللغويين إلى تعريف الرحمة بما يرادفها أو يقاربها من المصطلحات كالعطف والرقة والشفقة والرأفة والإحسان، إلخ، واشتغلوا بالفروق الدقيقة بينها وذكر ما اشتق من الجذر "رحم" من الكلمات والأسماء والصفات، وهذا النهج يهتم ببيان معنى الرحمة كونها سلوكًا إنسانيًا لا يحتاج إلى تكلف شرح؛ فهي ظاهرة مشاهدة لا تخطئها العين ولا يلتبس فيها الفكر (الجوهري, اسماعيل بن حماد، 1974م، صفحة 1929، مج5)؛ (ابن فارس، 1990م، صفحة 498، ج2).

مفهوم الرحمة في الاصطلاح:

عرفها الجرجاني بأنها "إرادة إيصال الخير" (الجرجاني, أبو الحسن علي بن محمد، 2003م، صفحة 146)، وقيل هي "إفاضة الخير وإرادة إيصاله" (الأحمد نكري, القاضي عبد النبي بن عبد الرسول، 2000م، صفحة 95، ج2)، ويقرب من هذا التعريف ما قاله ابن الجوزي بأنها "النعمة على المحتاج" (ابن الجوزي, عبد الرحمن بن علي، 1984م، صفحة 331).

لكن بما أن الرحمة من الأخلاق لا بد أن يكون تعريفها مشتقًا من تعريف الأخلاق، من حيث الدافع النفسي الباطن والأثر السلوكي الظاهر. وقد نحا هذا النحو بعض العلماء فعرفوا الرحمة بأنها: رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم ودفع الشر عنه، وعبر بعضهم عن الرحمة بأنها: إرادة الإحسان والخير للآخرين. فالدافع النفسي هو رقة القلب وإرادة الإحسان، أما الأثر السلوكي فهو بذل الإحسان والخير للمرحوم بقول أو فعل (الجرجاني, أبو الحسن علي بن محمد، 2003م، صفحة 100)؛ (الراغب الاصفهاني، 1997م، صفحة 374)؛ (القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي، 1988م، صفحة 286، ج1)؛ (الكفوي، ابو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، 1998م، صفحة 471).

وإذا وصف به الباري فليس المراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقَّة، فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز الله في طباع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان (المناوي, محمد عبد الرؤوف، 1410هـ، صفحة 360).

وقيل إنها "خلق مركب من الود والجزع، والرحمة لا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلة مكروهة، إما نقيصة في نفسه أو محبة عارضة. فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزعٍ من الحال التي من أجلها رُحم، وهذه الحال مستحسنة، ما لم تخرج بصاحبها عن العدل ولم تنته به إلى الجور، وإلى فساد السياسة، فليس بمحمود، رحمة القاتل عند القود، والجاني عند القصاص" (الجاحظ, أبو عثمان عمر بن بحر، 1989م، صفحة 24).

خامساً- مفهوم العدل في اللغة والاصطلاح.

مفهوم العدل في اللغة:

"العدل خلاف الجور، وهو القصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، مِن عَدَلَ يَعْدِلُ فهو عادل من عُدولٍ وعَدْلٍ، يقال: عَدَلَ عليه في القضية فهو عادِلٌ، وبسط الوالي عَدْلَهُ" (الجوهري, اسماعيل بن حماد، 1974م، صفحة 1770، ج5)؛ (الفيروز آبادي, محمد بن يعقوب، د. ت، صفحة 1030)؛ (ابن منظور, جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري، 2005م، صفحة 430، ج11).

مفهوم العدل في الاصطلاح:

العدل هو: "وضع الشيء في محله" (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 372، ج1).
والعدل هو: "أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه" (ابن حزم, علي بن أحمد بن سعيد الظاهري، 1979م، صفحة 81).
وقيل هو: "عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور دينًا" (الجرجاني, أبو الحسن علي بن محمد، 2003م، صفحة 147).
وقيل هو: "القسط اللازم للاستواء، وهو استعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، من غير سرف، ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير" (الجاحظ, أبو عثمان عمر بن بحر، 1989م، صفحة 28).

المبحث الأول

التقوى في الفكر الإسلامي

قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 517، سورة الحجرات، آية: 13) أضحت هذه الآية الكريمة شعاراً إسلامياً بعد إستبعاد القيم المرتبطة بالقبيلة والعشيرة، تشير إلى هذه الثورة الفكرية والإعتبارية، فإستناداً إلى هذه الآية ليس هناك شيء غير التقوى، والإيمان المقترن بالشعور بالمسؤولية، وصلاح العمل، ليس سوى ذلك معياراً لتقييم شخصية الإنسان وقربه من الله تعالى، وكلّ من كان له نصيب أكبر من ذلك كان إلى الله أقرب وعنده أكرم (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 466، ج13).

لقد نهى الذكر الحكيم في آيات متعدّدة عمّا يُوقِع المجتمع الإسلامي في خطر، وتكلّم في جوانب من ذلك، في حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس وتبيّن أهم أصل يضمن النظم والثبات، وتميّز الميزان الواقعي للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة والمغريات الباطلة، فتقول: "يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا"، والمراد بـ "خلقناكم من ذكر وأنثى" هو أصل الخلقة وعودة أنساب الناس إلى "آدم وحواء"، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغي أن تفتخر قبيلة على أُخرى من حيث النسب، وإذا كان الله سبحانه قد خلق كلّ قبيلة وأولاها خصائص ووظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعية؛ لأنّ هذه الاختلافات مدعاةً لمعرفة الناس، فلو كانوا على شاكلة واحدة ومتشابهين لساد الهرج والمرج في المجتمع البشري أجمع.

إنّ القرآن الكريم يلغي جميع الامتيازات الظاهرية والمادية، ويعطي الأصالة والواقعية لمسألة التقوى والخوف من الله، ويقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى في سبيل التقرّب إلى الله وساحة قدسه.

وحيث أنّ التقوى صفة روحانية وباطنية ينبغي أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّةً في القلب والروح، وربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون والمتّصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف في نهاية الآية قائلاً: "إنّ الله عليم خبير"، فالله يعرف المتّقين حقّاً وهو مطّلع على درجات تقواهم وخلوص نيّاتهم وطهارتهم وصفائهم، فهو يكرمهم طبقاً لعلمه ويثيبهم، وأمّا المدّعون الكذَبَة فإنّه يحاسبهم ويجازيهم على كذبهم أيضاً.

وفي فريضة الصوم ذكر سبحانه وتعالى التقوى في قوله تعالى ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 29، سورة البقرة، آية: 187)، والتقوى هنا هي الأوّل والآخر ففي أوّل آية ترتبط بأحكام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهدف النهائي للصوم، وفي آخر آية أيضاً وردت عبارة (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وهذا يؤكد أن كل مناهج الإسلام وسيلة لتربية الروح والتقوى والفضيلة والإرادة والإحساس بالمسؤولية.

وفي موضع آخر يخاطب الله تعالى نبيه الخاتم بقوله ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 418، سورة الأحزاب، آية: 1)، إنّ هذه الآية وما بعدها بمجموعها تأمر النّبي (o) بأوامر مهمّة، أوّلها في مجال التقوى، والتي تهيّء الأرضية لكلّ برنامج آخر، فتقول: (ياأيّها النّبي اتّق الله).

إنّ حقيقة التقوى هي ذلك الإحساس الداخلي بالمسؤولية، ولولا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع ولا يتحرّك باتّجاه أي برنامج بنّاء. والتقوى هي الهدف الأسمى للهداية والإنتفاع بآيات الله، كما جاء في الآية الثّانية من سورة البقرة: (هدىً للمتّقين). صحيح أنّ المرحلة النهائية للتقوى تحصل بعد الإيمان والعمل طبق أوامر الله سبحانه، إلاّ أنّ مرحلتها الإبتدائية تقع قبل كلّ هذه المسائل، لأنّ الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤولية داخلياً، فإنّه لا يسعى للتحقّق من دعوة الأنبياء والتثبّت منها، ولا يصغي إليها، وحتّى مسألة (دفع الضرر المحتمل) التي عدّها علماء الكلام والعقائد أساس ودعامة السعي إلى معرفة الله، فإنّها في الحقيقة فرع من فروع التقوى.

إنّ القرآن جعل أكبر امتياز للقوى، وعدّها معياراً لمعرفة القيم الإنسانية فحسب، وفي مكان آخر عدّها خير الزاد والشراب إذ يقول: (وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى) (القرآن الكريم، صفحة 31، سورة البقرة، آية: 197). أمّا في سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: (ولباس التقوى ذلك خير) (القرآن الكريم، صفحة 153، سورة الأعراف، آية: 26). كما أنّه عبّر عنها في آيات أُخر بأنّها واحدة من أُوَل أسس دعوة الأنبياء، ويسمو بها في بعض الآيات إلى أن يعبّر عن الله بأنّه أهل التقوى فيقول: (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) (القرآن الكريم، صفحة 577، سورة المدثر، آية: 56).

والقرآن الكريم يعدّ التقوى نوراً من الله، فحيثما رسخت التقوى كان العلم والمعرفة إذ يقول: (واتقوا الله ويعلّمكم الله) (القرآن الكريم، صفحة 48، سورة البقرة، آية: 282). ويقرن التقوى بالبرّ في بعض آياته فيقول: (وتعاونوا على البرّ والتقوى). أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: (اعدلوا هو أقرب للتقوى).

ولابد أن نرى ما هي حقيقة التقوى التي هي أعظم رأس مال معنوي وافتخار للإنسان، فقد أشار القرآن إشارات تكشف لنا أستاراً عن حقيقة التقوى، فيذكر في آيات متعدّدة «القلب» مكاناً للتقوى، ومن ضمنها قوله تعالى: (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) (القرآن الكريم، صفحة 515، سورة الحجرات، آية: 3).

ويجعل القرآن «التقوى» في مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك في الآية الثامنة من سورة الشمس: (فألهمها فجورها وتقواها) (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 567، ج16).

ويعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان والإخلاص والنية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء في وصفه في شأن «مسجد قبا» (في المدينة) حيث بنى المنافقون في قباله «مسجد ضرار» فيقول: (لمسجد أُسس على التقوى من أوّل يوم أحقُّ أن تقوم فيه) (القرآن الكريم، صفحة 204، سورة التوبة، آية: 108).

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هي الإحساس بالمسؤولية والتعهّد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من التلوّثات ويجعل فكره ونيّته في خلوص من أية شائبة.

وحين نعود إلى الجذر اللغوي لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضاً لأنّ «التقوى» مشتقّة من «الوقاية» ومعناها المواظبة والسعي على حفظ الشيء، والمراد في هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، وجعل القوى تتمركز في أمور يكون رضا الله فيها:

وقد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

1 . حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.
2 . تجنّب كلّ إثم وهو أعم من أن يكون تركاً لواجب أو فعلاً لمعصية.
3 . التجلّد والإصطبار عن كلّ ما يشغل القلب ويصرفه عن الحقّ، وهذه تقوى الخواص بل خاص الخاص (المجلسي, محمد باقر، 1983م، صفحة 354، ج66).

وقد ورد في نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين علي (γ) الكثير من التعابير الحيّة والبليغة في شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى في كثير من خطب الإمام وكلماته القصار، ففي بعض كلماته يقارن (γ) بين التقوى والذنب فيقول: "ألا وإنّ الخطايا خيل شُمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحّمت بهم في النّار ألا وإنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة" (الرضي, الشريف، (د،ت)، صفحة 48، ج1).

وطبقاً لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هي حالة ضبط النفس والتسلّط على الشهوات، في حين أنّ عدم التقوى هو الإستسلام للشهوات وعدم التسلّط عليها، ويقول الإمام علي في مكان آخر: "اعلموا عباد الله أنّ التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا" (الرضي, الشريف، (د،ت)، صفحة 51، ج2). ويقول في مكان آخر أيضاً: "فاعتصموا بتقوى الله فإنّ لها حبلاً وثيقاً عروتهُ ومعقلاً منيعاً ذروتهُ" (الرضي, الشريف، (د،ت)، صفحة 130، ج2). ومن خلال التعبيرات آنفة الذكر تتّضح حقيقة التقوى وروحها.

ولابد من الإلتفات إلى هذه «اللطيفة» وهي أنّ التقوى ثمرة شجرة الإيمان، ومن أجل الحصول على هذه الثمرة النادرة والغالية ينبغي أن تكون قاعدة الإيمان راسخة ومُحكمة، ومن المؤكد إنّ ممارسة الطاعة وتجنّب المعصية والإلتفات إلى المناهج الأخلاقية تجعل التقوى راسخة في النفس، ونتيجتها ظهور نور اليقين والإيمان في نفس الإنسان، وكلّما ازداد نور التقوى ازداد نور اليقين أيضاً، ولذلك نجد التقوى في بعض الروايات الإسلامية على أنّها درجة أعلى من الإيمان وأدنى من اليقين (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 569، ج16).

يروى عن الإمام علي بن موسى الرضا (γ) أنه قال: "الإيمان فوق الإسلام بدرجة والتقوى فوق الإيمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين" (الكليني, محمد بن يعقوب، 2007م، صفحة 51، ج2). إنّ التقوى هي التي تعطي للإنسان الوعي والوضوح، كما أنّ الوعي يعطي للإنسان التقوى، أي أنّ لكلّ من التقوى والوعي تأثير متبادل بعضهما على البعض الآخر.

وفي حديث معروف عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يقول: "لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات" (المجلسي, محمد باقر، 1983م، صفحة 332، ج60). ولإدراك هذا الحديث نلتفت لما قاله الإمام علي (عليه السلام): "لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه وأصمّه، وأذلّه وأضلّه" (الريشهري, محمد، 1422هـ، صفحة 3478، ج4).

وقبل أن ننهي هذا المبحث لابد من ذكر قول الله تعالى لما أعده من نعيم للمتقين في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ (القرآن الكريم، صفحة 264، سورة الحجر، آية: 45) ، و﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ (القرآن الكريم، صفحة 521، سورة الذاريات، آية: 15)، و﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُون﴾ (القرآن الكريم، صفحة 581، سورة الذاريات، آية: 41)، فالتقوى هي اتّقاء واجتناب الذنوب والفساد والشرك والكفر، والإحسان هو أداء كل عمل حسن، والعمل يتعلق بالأعمال الصالحة، ليتضح أنّ منهج النعم الإلهية مرتبط بهذه الجماعة فقط، وليس بمن يدعي الإيمان الكاذب، والملوثين بأنواع الفساد، وإن كانوا في الظاهر من أهل الإيمان (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 308، ج19).

وفي رواية عَنْ مُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصادق (γ) فَذَكَرْنَا الْأَعْمَالَ فَقُلْتُ أَنَا مَا أَضْعَفَ عَمَلِي فَقَالَ: "مَهْ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ لِي إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ مَعَ التَّقْوَى خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعَمَلِ بِلَا تَقْوَى قُلْتُ كَيْفَ يَكُونُ كَثِيرٌ بِلَا تَقْوَى قَالَ نَعَمْ مِثْلُ الرَّجُلِ يُطْعِمُ طَعَامَهُ وَيَرْفُقُ جِيرَانَهُ وَيُوَطِّئُ رَحْلَهُ فَإِذَا ارْتَفَعَ لَهُ الْبَابُ مِنَ الْحَرَامِ دَخَلَ فِيهِ فَهَذَا الْعَمَلُ بِلَا تَقْوَى وَيَكُونُ الْآخَرُ لَيْسَ عِنْدَهُ فَإِذَا ارْتَفَعَ لَهُ الْبَابُ مِنَ الْحَرَامِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ" (الكليني, محمد بن يعقوب، 2007م، صفحة 77، مج2).

وروي عنه أيضاً أنه قال: " مَا نَقَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ عَبْداً مِنْ ذُلِّ الْمَعَاصِي إِلَى عِزِّ التَّقْوَى إِلَّا أَغْنَاهُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ وَأَعَزَّهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ وَآنَسَهُ مِنْ غَيْرِ بَشَرٍ" (الكليني, محمد بن يعقوب، 2007م، صفحة 77، مج2).

وفي رواية عن الإمام أبي جعفر الباقر (γ) يَعِظُ أحدَ أصحابه أنه قال: " وَاعْلَمْ يَا جَابِرُ أَنَّ أَهْلَ التَّقْوَى أَيْسَرُ أَهْلِ الدُّنْيَا مَئُونَةً وَأَكْثَرُهُمْ لَكَ مَعُونَةً تَذْكُرُ فَيُعِينُونَكَ وَإِنْ نَسِيتَ ذَكَّرُوكَ قَوَّالُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ قَوَّامُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَطَعُوا مَحَبَّتَهُمْ بِمَحَبَّةِ رَبِّهِمْ وَوَحَشُوا الدُّنْيَا لِطَاعَةِ مَلِيكِهِمْ وَنَظَرُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مَحَبَّتِهِ بِقُلُوبِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ لِعَظِيمِ شَأْنِهِ فَأَنْزِلِ الدُّنْيَا كَمَنْزِلٍ نَزَلْتَهُ ثُمَّ ارْتَحَلْتَ عَنْهُ أَوْ كَمَالٍ وَجَدْتَهُ فِي مَنَامِكَ فَاسْتَيْقَظْتَ وَلَيْسَ مَعَكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِنِّي ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا مَثَلًا لِأَنَّهَا عِنْدَ أَهْلِ اللُّبِّ وَالْعِلْمِ بِاللَّهِ كَفَيْءِ الظِّلَالِ" (الكليني, محمد بن يعقوب، 2007م، صفحة 133، مج2).

إنّ أسمى أهداف الشريعة الإسلامية هو تغيير الأخلاق والقيم، وإنَّ الظروف الخانقة الصعبة التي يعاني منها مسلمو هذا الزمان، وتحت ضغط الأعداء الجلادين القساة، فإنّ ذلك بسبب تركهم القيم الأصيلة، وانتشار قيم واعراف الجاهلية بينهم مرّة أُخرى، فأصبح المال والمنصب الدنيوي مقياس التقييم، ونسوا العلم والفضيلة والتقوى، وغرقوا في بحر المغريات والزخارف المادية، وأضحوا غرباء عن الإسلام، وما دام الوضع كذلك فيجب أن يدفعوا ثمن هذا الانحراف العظيم، وما داموا لم يشرعوا بالتغيير ابتداءاً من القيم الحاكمة على وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمة الله ولطفه، وذلك: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 250، سورة الرعد، آية:11).

المبحث الثاني

الرحمة في الفكر الإسلامي

بعث الله تعالى أنبيائه ورسله ليرشدوا الناس ويعلمونهم الطرق المؤدي إلى الصلاح والفلاح، وبعث رسوله الحبيب خاتم الأنبياء والمرسلين المصطفى محمد (o) مكملاً ومصححاً للانحرافات الحاصلة في الرسالات السابقة، هادياً ومبشراً ونذيراً، ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والحرية، ورحمةً للعالمين برسالته الخاتمة للرسالات والتي تبدأ بقوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وما من سورة من سور القرآن الكريم إلا وتبدأ بهذا النص القرآني سوى سورة واحدة، ومع هذا نجد في مضامينها هذا القول، فتكتمل السور القرآنية المائة وأربع عشرة سورة كلها بمضمون الرحمة الإلهية العامة والخاصة.

فصفة "الرحمن" تشير إلى الرحمة الإلهية العامة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكلّ العباد يتمتعون بموهبة الحياة، وينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية، وهذه هي رحمته العامة الشاملة لعالم الوجود كافة وما تسبّح فيه من كائنات.

وصفة "الرحيم" إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها بإيمانهم وعملهم الصالح، وَحَرُمَ منها المنحرفون والمجرمون، الأمر الذي يشير إلى هذا المعنى أنّ صفة "الرحمن" ذكرت بصورة مطلقة في القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكنّ صفة "الرحيم" ذكرت أحياناً مقيّدة، لدلالتها الخاصة، كقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 423، سورة الأحزاب، آية: 43) وأحياناً أُخرى مطلقة (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 33، ج1).

ويؤيد ذلك ما روي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق (γ) في قَوله: "وَاللهِ إلهُ كُلِّ شَيْء الرَّحْمنُ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنينَ خَاصَّةً" (الشاهرودي, علي النمازي، 1418هـ، صفحة 99، ج4).

ومن جهة أُخرى، كلمة "الرحمن" اعتبروها صيغة مبالغة، ولذلك كانت دليلا آخر على عمومية رحمته، واعتبروا "الرحيم" صفة مشبّهة تدلّ على الدوام والثبات، وهي خاصة بالمؤمنين.

وثمّة دليل آخر، هو إنّ "الرحمن" من الأسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره، بينما "الرحيم" صفة تنسب لله ولعباده. فالقرآن وصف بها الرّسول الكريم، حيث قال: ﴿**عَزِيزٌ عليه مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 207، سورة التوبة، آية: 128).

وأشار إلى هذا المعنى الإمام الصادق (γ)، فيما روي عنه: "اَلرَّحْمنُ إِسْمٌ خَاصٌّ بصِفَة عَامَّة، وَالرَّحيمُ عَامٌّ بِصِفَة خَاصَّة" (الطبرسي, ابو علي الفضل بن الحسن، 1995م، صفحة 21، ج1).

ومع هذا كله، نجد كلمة "الرحيم" تستعمل أحياناً كوصف عام، وهذا يعني أن التمييز المذكور بين الكلمتين إنما هو في جذور كل منهما، ولا يخلو من استثناء، ففي دعاء عرفة، المنقول عن الإمام الحسين بن علي (γ)، وردت عبارة: "يَا رَحْمنَ الدُّنْيا وَالاْخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا".

وقد ورد عن رَسُولِ اللهِ (o) أنه قَالَ: "إِنَّ للهِ عَزَّ وَجَلّ مائَةَ رَحْمَة، وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْهَا واحِدَةً إِلَى الأَرْضِ، فَقَسَّمَهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَيَتَرَاحَمُونَ، وَأَخَّرَ تِسْعاً وَتِسْعِينَ لِنَفْسِهِ يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (الطبرسي, ابو علي الفضل بن الحسن، 1995م، صفحة 21، ج1).

وهنا ثمة سؤال يُطرَح، لِمَ لَمْ تَرِدْ بَقية صِفاتِ اللهِ في البَسْمَلَةِ؟ في البسملة ذكرت صفتان لله فقط هما: الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟

والجواب على السؤال يتضح لو عرفنا أنّ كل عمل ينبغي أن يبدأ بالاستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كلّ الموجودات، وتنقذ المستغيثين في اللحظات الحساسة، هذه حقيقة يوضّحها القرآن إذ يقول تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 169، سورة الأعراف، آية: 155) ويقول على لسان حملة العرش: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 467، سورة غافر، آية: 67)، ومن جانب آخر نرى الأنبياء وأتباعهم يتوسّلون برحمة الله في المواقف الشديدة الحاسمة، فقوم موسى تضرّعوا إلى الله أن ينقذهم من تجبّر فرعون وظلمه، وتوسّلوا إليه برحمته فقالوا: ﴿**وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 218، سورة يونس، آية: 86).

وفي قوم هود، يقول القرآن: ﴿**فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 159، سورة الأعراف، آية: 72)، من الطبيعي أنّنا، حين نتضرّع إلى الله، نناديه بصفات تتناسب مع تلك الحاجة، فعيسى (γ) حين يطلب من الله مائدة من السماء، يقول: ﴿**ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 127، سورة المائدة، آية: 114) ونوح (γ) يدعو الله في حطّ رحاله: ﴿**رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 344، سورة المؤمنون، آية:29)، وزكريا نادى ربّه لدى طلب الولد الوارث قال: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 329، سورة الأنبياء، آية: 89)؛ (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 39، ج1).

فما دام الله سبحانه وتعالى يتصف بهذه الصفة الكريمة "صفة الرحمة" التي تشمل وتعم جميع خلقه، فمن الواجب على الإنسان أن يتصف ولو بشيء يسير من هذه الصفة مع الناس من حوله، بغض النظر عن الانتماءات والاعتقادات والقوميات، فالناس في الخلق سواسية خالقهم واحد ولا فضل بينهم الا من خلال العمل الصالح الذي به تعمر الأرض ويعم الأمان.

المبحث الثالث

العدل في الفكر الإسلامي

إنَّ العدل ركن إسلامي مهم، نادراً ما نجد قضية أعطى الإسلام لها أهمية قصوى كقضية العدل، فهي وقضية التوحيد سيان في تشعب جذورهما إلى جميع الأُصول والفروع الإسلامية، وبعبارة أُخرى: كما أنّ جميع القضايا العقائدية والعملية والاجتماعية والفردية والأخلاقية والقانونية لا تنفصل مطلقاً عن حقيقة التوحيد، فكذلك لا تنفصل كل هذه القضايا ولا تخلو أبداً من روح العدل.

وفي هذه الحالة لا عجب أن يكون العدل واحداً من أُصول العقيدة والدين، وأساساً من أُسس الفكر الإسلامي، ومع كونه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ويدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهية، إلاّ أنّه يشتمل على معان واسعة في خصائصه ومزاياه، ولهذا يُعَدُّ ما أولته البحوث الاجتماعية في الإسلام من الاهتمام بالعدل والاعتماد عليه يفوق ما حظيت به المبادئ الإسلامية الأُخرى من ذلك.

ورد عن النّبي محمد (o) أنه قال: "بالعدل قامت السماوات والأرض" (الفيض الكاشاني, محمد مرتضى، 1419هـ، صفحة 64، ج7). وهذا القول من أوضح التعابير التي ذُكرت في شأن العدل، ومعناه أنّ حياة البشر المحدودة في المعمورة ليست وحدها التي يكون قوامها العدل؛ بل إنّ حياة ووجود الكون بأكمله، والسماوات والأرضين كلها قائمة بالعدل، وفي ظل حالة من توازن القوى الفاعلة فيها، ووجود واستقرار كل شيء في محله منها، بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قيد أنملة لحكمت على نفسها بالفناء والزوال.

وهناك حديث آخر يؤيد هذا القول هو: "الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم" لأنّ للظلم أثراً سريعاً في هذه الحياة الدنيوية ومن نتائجه الحروب والاضطرابات والقلاقل والفوضى السياسية والاجتماعية والأخلاقية والأزمات الاقتصادية التي تعمّ العالم اليوم، وهذا ما يثبت الحقيقة المذكورة بصورة مؤكدة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ اهتمام الإسلام لم ينصب في مجرد العدالة، بل إنّه أولى أهمية أكبر لتحقيق العدالة، وطبيعي أنّ محض التنظير لهذه المسألة، لا يجدي نفعاً في استعادة العدالة المفقودة، وعلاج التمييز الطبقي والعنصري، والفساد والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، بل إنّ عظمة هذه الآيات والأحكام تتجلّى في يوم تطبق فيه العدالة في صميم حياة الناس (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 628، ج3).

إذاً فالعدل هو القانون الذي تدور حوله جميع أنظمة الوجود، وحتى السماوات والأرض فهي قائمة على أساس العدل، والمجتمع الإنساني الذي هو جزء صغير في كيان هذا الوجود الكبير، لا يقوى أن يخرج عن قانون العدل، ولا يمكن تصور مجتمع ينشد السلام يحظى بذلك دون أن تستند أركان حياته على أُسس العدل في جميع المجالات.

وإذا عرفنا أنَّ المعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدي على حقوق الآخرين، ما هي إلاّ صور لخلاف أصل العدل وأركانه.

فالإنسان السليم هو ذلك الذي تعمل جميع أعضاء جسمه بالشكل الصحيح بدون أية زيادة أو نقصان، ويحل المرض فيه وتتبيّن عليه علائم الضعف والخوار بمجرّد تعطيل أحد الأعضاء، أو تقصيره في أداء وظيفته، ويمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سيمرض ويعتل إنْ لم يُراع فيه العدل (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 297، ج8).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨**﴾ (القرآن الكريم، صفحة 87، سورة النساء، آية: 58) يشير الله سبحانه وتعالى في القسم الثّاني من هذه الآية إلى قانون مهم، وهو مسألة "العدالة في الحكومة" فيقول: (وإذا حكمتم بين النّاس فاحكموا بالعدل) أي إنّ الله يوصيكم إلى جانب أداء الأمانة، أن تلتزموا جانب العدالة في القضاء والحكم بين الناس أيضاً، فتحكموا بالعدل.

إنّ قانون العدالة في الحكم هو الآخر قانون كلّي وعام، ويشمل كل نوع من القضاء والحكومة، سواء في الأُمور الكبيرة والأُمور الصغيرة، إلى درجة أنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أنّ صبيّين ترافعا إلى الإمام الحسن بن علي في خط كتباه وحكَّماه في ذلك ليحكمَ أيَّ الخطَّين أجود، فبصر به عليّ (γ) فقال: "يا بني أُنظر كيف تحكم فإنَّ هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة" (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 282، ج3).

إنّ قانوني "حفظ الأمانة، والعدالة في الحكم والحكومة" المُهمَّين يمثلان قاعدة المجتمع الإنساني السليم، فلا يستقيم أمر مجتمع، سواءاً كان مادياً أو إلهياً من دون تنفيذ وإجراء هذين الأصلين.

الأصل الأوّل يقول: إنّ الأموال والثروات والمناصب والمسؤوليات والمهام والرساميل الإنسانية والثقافات والتراث والمخلفات التاريخية، كلها أمانات إلهية سلمت بأيدي أشخاص مختلفين في المجتمع، والجميع مكلّفون أن يحفظوا هذه الأمانات، ويجتهدوا في تسليمها إلى أصحابها الأصليين، ولا يخونوا فيها أبداً.

ومن جهة أُخرى إنّ الاجتماعات تلازم التصادمات والاحتكاكات في المصالح والمنافع، ولهذا يتطلب الحل والفصل على أساس من الحكومة العادلة والقضاء العادل حتى يزول وينمحي كل أنواع التمييز الظالم من الحياة الاجتماعية.

والجدير بالذكر، إنّ مسألة "أداء الأمانة" قدمت في هذه الآية على مسألة "العدالة" ولعلّ ذلك لأجل أنّ مسألة العدل في القضاء والحكم مترتبة دائماً على الخيانة، لأنّ الاصل هو أن أمناء بالأصالة، فإذا انحرف شخص أو أشخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلى العدالة لتوّفقهم على مسؤولياتهم وتعرفهم بوظائفهم (الشيرازي, ناصر مكارم، 2009م، صفحة 283، ج3).

ولأهميّة الأمانة والعدل في الإسلام فقد ورد تأكيد كبير على هذه المسألة في المصادر الإسلامية إلى درجة أنّنا قلّما نجد مثله في مورد غيره من الأحكام والمسائل، والأحاديث القصيرة التالية توضح هذه الحقيقة:

1 . عن الإمام الصّادق (γ) أنّه قال:

"لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإن ذلك شيء اعتاده فلو تركه استوحش، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأَداء أمانته" (الحويزي, عبد علي بن جمعة، (د.ت)، صفحة 82، ج2).

2 . جاء في حديث آخر عن الإمام الصّادق (γ) أنّه قال:

"إن عليّاً إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله (o) بصدق الحديث وأداء الأمانة" (الحويزي, عبد علي بن جمعة، (د.ت)، صفحة 83، ج2).

3 . روي في حديث آخر عن الإمام الصّادق (γ) أيضاً قال لأحد أصحابه:

"أعلم أن ضارب عليّ بالسيف وقاتله لو ائتمنني واستنصحني واستشارني ثمّ قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة" (الحويزي, عبد علي بن جمعة، (د.ت)، صفحة 83، ج2).

الخاتمة

1- إنّ أهم الأهداف وأسماها التي جاءت بها الشريعة الإسلامية هو تغيير الأخلاق والقيم، وإنَّ الظروف الخانقة الصعبة التي يعاني منها مسلمو هذا الزمان، وتحت ضغط الاستكبار العالمي وعملائه، فإنّ ذلك بسبب تركهم القيم الأصيلة، وانتشار الفساد بينهم مرّة أُخرى، فأصبح المال والمنصب الدنيوي مقياس التقييم، وابتعدوا عن العلم والفضيلة والتقوى، وغرقوا في بحر الشهوات والمغريات المادية، وأصبحوا غرباء عن الإسلام، وما دام المسلمون على هذا الحال عليهم أن يدفعوا ثمن هذا الانحراف العظيم، وما داموا لم يشرعوا بتغيير القيم الحاكمة على وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمة الله وعنايته.

2- أنّ التقوى هي الإحساس بالمسؤولية والتعهّد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجةً لرسوخ إيمانه في قلبه حيث يصدّه عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ويغسل أعمال الإنسان من الملوّثات ويجعل فكره ونيّته خالصة من أية شائبة.

3- إذا كان الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض يتصف بهذه الصفة الكريمة (صفة الرحمة) التي تشمل وتعم جميع خلقه، فمن الواجب على الإنسان أن يتصف ولو بشيء يسير من هذه الصفة مع الناس من حوله، بغض النظر عن الانتماءات والاعتقادات والقوميات، فالناس في الخلق سواسية خالقهم واحد ولا فضل بينهم الا من خلال العمل الصالح الذي به تعمر الأرض ويعم الأمان ويشعر الإنسان بالكرامة والحرية.

4- أكد الإسلام على قضية العدالة في المجتمع، فالمعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدي على حقوق الآخرين، ما هي إلاّ صور لخلاف أصل العدل في الفكر الإسلامي، وقد أعطى الإسلام أهمية قصوى لقضية العدل، كما أعطاها لقضية التوحيد في تشعب جذورهما إلى جميع الأُصول والفروع الإسلامية، فجميع القضايا العقائدية والعملية والاجتماعية والفردية والأخلاقية والقانونية لا تنفصل مطلقاً عن حقيقة التوحيد، كذلك لا تنفصل كل هذه القضايا ولا تخلو أبداً من روح العدل. وعجب أن يكون العدل واحداً من أُصول العقيدة والدين، وأساساً من أُسس الفكر الإسلامي، وهو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه ويدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهية، إلاّ أنّه يشتمل على معان واسعة في خصائصه ومزاياه، ولذلك كان من أولويات البحوث الاجتماعية في الإسلام هو الاهتمام بالعدل والاعتماد عليه قد فاق ما حظيت به المبادئ الإسلامية الأُخرى.

المراجع

القرآن الكريم

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (1984م). *نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر* (المجلد 1). بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الظاهري. (1979م). *الأخلاق والسير في مداواة النفوس*. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

ابن فارس. (1990م). معجم *مقاييس اللغة*. بيروت: الدار الإسلامية.

ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري. (2005م). *لسان العرب* (المجلد 1، ج12). بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو العينين، علي خليل مصطفى. (1988م). *القيم الإسلامية والتربية* (المجلد 1). المدينة المنورة: مكتبة الحلبي.

الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول. (2000م). *دستور العلماء أو جامع العلوم* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. (1989م). *تهذيب الأخلاق* (المجلد 2). طنطا – مصر: دار الصحابة للتراث.

الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد. (2003م). *التعريفات* (المجلد 2). بيروت: دار الكتب العلمية.

الجوهري، اسماعيل بن حماد. (1974م). *الصحاح في اللغة* (المجلد 1). بيروت: دار الحضارة العربية.

الحويزي، عبد علي بن جمعة. ((د.ت)). *تفسير نور الثقلين* (المجلد 1). بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.

الراغب الاصفهاني. (1997م). *مفردات ألفاظ القرآن* (المجلد 2). دمشق: دار القلم.

الرضي، الشريف. ((د،ت)). *نهج البلاغة* (المجلد 1). بيروت: دار المعرفة.

الريشهري، محمد. (1422ه). *ميزان الحكمة* (المجلد 1). قم: دار الحديث.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. (2004م). *تاج العروس من جواهر القاموس* (المجلد ط2، ج2). الكويت: مطبعة حكومة الكويت.

الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. (1998م). *السلفية وقضايا العصر* (المجلد 1). الرياض: دار اشبيليا.

الشاهرودي، علي النمازي. (1418ه). *مستدرك سفينة البحار*. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

الشيرازي، ناصر مكارم. (2009م). *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل* (المجلد 2). بيروت: دار الأميرة.

الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن. (1995م). *مجمع البيان في تفسير القرآن* (المجلد 1). بيروت: مؤسسة الأعلمي.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. (د. ت). *القاموس المحيط* (المجلد ج4). بيروت: دار الفكر.

الفيض الكاشاني، محمد مرتضى. (1419ه). *الصافي في تفسير القرآن* (المجلد 1). طهران: دار الكتب الإسلامية.

القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي. (1988م). *الشفا بتعريف حقوق المصطفى*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.

القرآن الكريم. (بلا تاريخ).

الكفوي، ابو البقاء أيوب بن موسى الحسيني. (1998م). *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية* (المجلد 2). بيروت: مؤسسة الرسالة.

الكليني، محمد بن يعقوب. (2007م). *الكافي* (المجلد 1). بيروت: منشورات الفجر.

المانع، مانع بن محمد بن علي. (2005م). *القيم بين الإسلام والغرب* (المجلد 1). الرياض: دار الفضيلة.

المجلسي، محمد باقر. (1983م). *بحار الانوار* (المجلد 3). بيروت: جار احياء التراث العربي.

المناوي، محمد عبد الرؤوف. (1410ه). *التوقيف على مهمات التعاريف* (المجلد 1). بيروت: دار الفكر.

زهران، حامد عبد السلام. (1977م). *علم النفس الاجتماعي* (المجلد 1). القاهرة: عالم الكتب.

صالح بن حميد وآخرون. (د. ت). *موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ص)* (المجلد 4). جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع.

عبد الله بن ابراهيم الطريفي وآخرون. (1417ه). *الثقافة الإسلامية: تخصصاً – ومادة – وقسمة علمية* (المجلد 1). لا. م: لا. د.